موقف السلف من الاختلاف

ما موقف كثير من علماء السّلف: من الصحابة والتابعين، ومن اقتدى بهم مِنّ بعدهم من الاختلاف في الاجتهاد والرأي؟ هذا هو المحور الأول في هذا الفصل.

قال الإمام الحجة القاسم بنُ محمدِ بنِ أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين، وهو أحد سادات التابعين:

«لقد نفع الله باختلاف أصحاب النبي ﷺ في أعمالهم؛ لا يعمل العامل بعمل رجلٍ منهم إلا رأى أنه في سعة، ورأى أن خيراً منه قد عمله».

وقال الإمام الحجة القاضي يحيى بنُ سعيدٍ الأنصاريُّ، أحدُ التابعين الأجلاء أيضاً: «ما برح أولو الفتوى يفتون، فيحلّ هذا، ويحرّم هذا، فلا يرى المحرّم أن المحلَّ هلكَ لتحليله، ولا يرى المحلّ أن المحرّم هلك لتحريمه».

بل إن بعض سادات السلف وثقاتهم وعبادهم أراد أن يلغي كلمة (الاختلاف) ويستعملَ بدلاً منها كلمة (السَّعة). فقد صنّف رجلٌ كتاباً في الاختلاف، فقال له الإمام المبجّل

أحمدُ بن حنبل رحمه الله: «لا تسمّه كتاب الاختلاف، ولكن سَمِّه كتاب السِّعة»؛ وذلك لأن كلمة الاختلاف توحي بالشقاق والافتراق، والسعة كلمة صريحة في الرخصة واليسر والراحة.

أيها القارئ الكريم:

يروى أن الخليفة العباسيّ المشهور، هارونَ الرشيد، قال للإمام العلَم مالكِ بنِ أنس رحمه الله: يا أبا عبدالله، نكتب هذه الكتب - يعني مؤلفاتِ الإمامِ مالك - ونفرّقها في آفاق الإسلام لنحمل عليها الأمة. فقال له الإمام مالك: يا أمير المؤمنين، إن اختلاف العلماء رحمةٌ من الله تعالى على هذه الأمة، كل يتّبع ما صحّ عنده، وكل على هدى، وكل يريد الله تعالى.

ويروى عن الإمام سفيانَ الثوريِّ رحمه الله أنه قال: «إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختُلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنْهَه».

وقريب من هذا قولُ الإمام أبي حنيفة رحمه الله: «قولنا هذا رأيٌ، وهو أحسنُ ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسنَ من

قولنا فهو أولى بالصواب منا»، وقوله: «هذا الذي نحن فيه رأيٌ لا نجبر أحداً عليه، ولا نقول: يجب على أحد قبوله بكراهية، فمن كان عنده شيءٌ أحسنُ منه فليأتِ به». وقولُ الإمام أحمدَ بنِ حنبل في الإمام إسحاقَ ابنِ راهويه رحمهما الله: «لم يعبر الجسر إلى خُراسان مثلُ إسحاق، وإن كان يخالفنا في أشياء فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضاً». فما أحوجنا - خاصة في هذا الزمن الذي تكالبت علينا فيه القوى - إلى هذا الإنصاف، نتحلى به: أفراداً عاديين، وطلابَ علمٍ ناشئين، وعلماءَ يفتون الناس في أحكام الدين!

هذا هو المحور الأول من المقالة، أما المحور الثاني فهو أمثلة على بعض ما وقع بين الصحابة الكرام رضوان الله عليهم من اختلاف في الرأي، وهم خير القرون، وخيرُ جيل عرفته البشرية، وستعرفه، في تاريخها الطويل. (وليس مرادُنا الحديثَ عن الفتن التي حصلت؛ لأنها خارجة عن هذا الموضوع).

الأول: اختلافهم في وفاة النبي ﷺ، إذ رفع عمر رضي الله عنه سيفه مهدداً بقتل من قال: إنه قد توفي، إلى أن جاء الصديق عليه رضوان الله وتلا عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ

إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾.

الثاني: اختلافهم في مكان دفنه عليه الصلاة والسلام.

الثالث: اختلافهم في الخلافة بعده ﷺ.

الرابع: اختلافهم في قتال مانعي الزكاة.

الخامس: اختلافهم في كتابة القرآن الكريم.

السادس: خالف عبدالله بنُ مسعود عمر بنَ الخطاب رضي الله عنهما في مسائل فقهية عديدة أوصلها ابن القيم رحمه الله إلى حوالي مئةِ مسألة، ومع ذلك لم يؤثر ذلك على حبِّ أحدهما للآخر واحترامه له.

السابع: أخرج البخاري ومسلم رحمهما الله في صحيحيهما أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: «**لا يصلينّ أحد العصر إلا في بني قريظة**»، فأدرك بعضَهم العصرُ في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نُصلي، لم يُرَد منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يُعنّف واحداً منهم.

obeikandi.com

وفي هذا الحديث درسٌ عظيم: فالصحابة رضي الله عنهم هم أهل اللغة ومعدِنُ البيان، سمعوا جملة قصيرة لا تزيد على بضع كلمات من سيد الفصحاء والبلغاء عليه الصلاة والسلام، ففهموها بشكلين مختلفين: أخذ بعضهم بظاهر النصّ الواضح وهو تأكيد النهي عن الصلاة إلا في بني قريظة، واجتهد بعضهم فعدلوا عن ظاهر النص، لما يرون أنه المراد منه وهو الإسراع في الانطلاق، فلم يُعنف النبي المعصوم عليه الصلاة والسلام أحداً من الفريقين، ولم يقل لواحدٍ: أصبت، وللآخر: أخطأت، لأنه يعلم طبائع العقول والأفهام، وكأنه بهذا - والله تعالى أعلم - قد أقرّ مدرستين في الفقه: مدرسةَ الأخذ بظاهر النص، ومدرسة الاجتهاد في فهم المراد منه وإن خالف الظاهر. فلماذا - بعد هذا - يتهم أناسٌ أناساً بالجمود لأنهم يأخذون بظواهر النصوص، ويعنف آخرون آخرين بأنهم يخالفون النصوص ويقدّمون آراءهم عليها عندما يجتهودن لمعرفة المراد من النص، حسب القواعد العلمية المعروفة لدى أهل الاختصاص؟! وبالمناسبة فقد قال الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتابه: رفع الملام عن الأئمة الأعلام: «ومع هذا فالذين صلّوا في الطريق كانوا أصوبَ فعلاً» والله تعالى أعلم.

الهوى أو التحيّز

هناك بعض القواعد المهمة في التفكير السّديد إذا اتضحت في الأذهان زادت من مساحة الائتلاف، وقلّصت من مساحة الاختلاف، وعززت آدابه في سلوك المختلفين، أُعدّد بعضَها، ثم أُحاول تفصيل الحديثِ عنها.

أولها: فهم دافع الهوى أو التحيّز، وثانيها: التفريق بين النص وتفسير النص، وثالثها: التفريق بين التقدير والتقديس؛ أعني: بين الاحترام والمبالغة في الاحترام، ورابعها: الاطلاع على حجج المخالفين.

ونبدأ بالحديث عن الهوى أو التحيّز: عرّف الراغب الإصفهاني رحمه الله الهوى فقال: «هو ميل النفس إلى الشهوة. وقيل سمّي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية». وقال الشريف الجرجاني: «هو ميلان النفس إلى ما تستلذّه الشهوات من غير داعية الشرع».

وقد ذمّ القرآن الكريم اتباع الهوى، وبيّن أنه يُضلُّ صاحبه عن الحقّ والصواب، بل قد يدفعه إلى التكذيب

opeikandi.com

بالحق استكباراً وعناداً، وربما حمله على ارتكاب جريمة القتل. قال تعالى في سورة ص: **﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾**.

وقال في سورة الفرقان: **﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾**.

وقال عزّ وجلّ في سورة البقرة مخاطباً بني إسرائيل: **﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾**؟!

أيها القارئ الكريم:

يسمّي بعض المفكرين الغربيين الهوى بـ (التحيّز)، ويعرّفون التحيزات بأنها «طرق في التفكير تقررها سلفاً قوى، ودوافع انفعالية شديدة، كالتي يكون مصدرُها منافعنا الذاتية الخاصة، أو ارتباطاتِنا الاجتماعية».

إن الهوى هو الحكم على شيء مقدّماً، وفي أثناء عملية الاستدلال يجعلنا الهوى نتجاهل بعض الوقائع أو الأدلة، ونبالغ في الاهتمام ببعضها الآخر، ميلاً منا نحو فكرة معينة

نحملها في ذهننا منذ البداية، مثلاً الناشئ في بيئة علمية دينية ترى أنّ أمراً معيناً مكروهٌ أو ممنوع يبحث عن الأدلة التي تساند الفكرة التي رُبّي عليها، ويُقلل من قيمة الأدلة التي تخالفها، ويدعو المخالف له إلى الاقتناع بما يراه هو صواباً، والطرف الآخر يفعل الشيءَ نفسه، فلا يلتقيان. ولو وعى الاثنان فقه الاختلاف والائتلاف لسلكا مسلكاً مغايراً لما هما عليه.

يقول الدكتور محمد عثمان نجاتي في كتابه: (القرآنُ وعلم النفس)، تحت عنوان: (التحيز الانفعالي والعاطفي).

«بيّنت بعض الدراسات التجريبية الحديثة في علم النفس حدوث أخطاءٍ في التفكير نتيجة التحيّز الانفعالي والعاطفي. وأثبتت التجارب أن حالتنا الانفعالية والعاطفية تؤثر في تفكيرنا، وتميل به إلى التحيز والوقوع في الخطأ فيما نصدره من أحكام».

إن عراقيل التفكير ليست واضحة كعراقيل الكلام، والمفكر نفسه قد لا يَفطَنُ لوجودِ عراقيلَ في تفكيره، كما يجهل المصابُ بعمى الألوان حقيقة آفته، إلى أن يكتشف – مع الزمن – أن الناس من حوله يرون الأشياء على خلاف ما يراها.

وليس من الضروري أن يكون الهوى فِجّاً، غليظاً، واضحاً للعِيان، بل قد يكون دقيقاً خفياً، فإن الأهواء على درجات متباينة، ويمكن أن تتسرّب إلى التفكير من مستوياتٍ كثيرة.

ومعرفة خطر الأهواء نافع في الاحتياط منها، وهي خُطوة أساسية في طريق التفكير السّديد الرشيد. ولعلّ الحديث الشريف المعروفَ يومئ إلى دقة بعض العيوب وخفائها على أصحابها، وهو دعاء النبي عليه الصلاة والسلام: «**اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه**»؛ وقديماً أشار الشاعر الحكيم إلى قريبٍ من هذا المعنى فقال:

وعينُ الرضا عن كلّ عيبٍ كليلةٌ
ولكنّ عين السُّخط تُبدي المساويا

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه (الفوائد): «الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد، وقطع العوائق. فالعوائد: السكون إلى الدعة والراحة، وما ألِفَه الناس واعتادُوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع، بل هي عندهم أعظمُ من الشرع؛ فإنهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها... وربما كفّروه أو بدّعوه وضلّلوه، أو هجروه وعاقبوه...» أقول: يفعل الناس هكذا بما اعتادوه من أمر الدنيا، فكيف بما اعتادوه من أمر الدين؟!

obeikandl.com

إن الهوى من عوائق التفكير السديد الذي ينحرف بصاحبه عن الحق. وإن ما ربّي الناس عليه واعتادوه من أمور الدين أو الدنيا (قد) تكون سبباً في عدم الاهتداء إلى الصواب، أو الأصوب والأحسن. وهي بالتالي تؤدي إلى التباغض والجفاء اللذين نهى الدين الحنيف عنهما. والله تعالى أعلم.

obeikandi.com

التقدير والتقديس

نتحدث في هذه المقالة عن الخلط بين التقدير والتقديس، ونعني بالتقدير: الاحترام اللازم، وبالتقديس: المبالغة في الاحترام، والخروجَ به عن الحدود الشرعية.

لقد دعا الإسلام الحنيف إلى احترام العلماء والفضلاء والكبراء، فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن من إجلال الله: إكرامَ ذي الشيبة المسلم، وحاملِ القرآن غير الغالي فيه، ولا الجافي عنه، وإكرامَ ذي السلطانِ المقسط**» رواه أبو داود، وحسّنه النووي والعراقي وابنُ حجر. وقال عليه الصلاة والسلام: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرفْ شرف كبيرنا**». قال الترمذي: حسنٌ صحيح.

لكن الاحترام والتقدير شيء، والمبالغة في الاحترام إلى درجة التقديس شيء آخر.

واقع جماعات من المسلمين اليوم أنهم (يقدّسون) بعض العلماء، أو المشايخ، أو الأئمة، ويصلون بهم إلى درجة قريبة من (العصمة) عملياً، وإن كانوا لا يقولون بذلك نظرياً؛ فلا

يرضون أن ينتقدهم أحد أنتقاداً علمياً بنّاء قائماً على أسس الإنصاف والاحترام والبحث عن الحقيقة. وفي الوقت ذاته لا يجدون حرجاً في تخطئة علماءَ آخرين، بل وتجريحهم، مع أنهم يحظون بالقدر ذاته من الاحترام والتقديس من قبل جماعات أخرى. هذا (التعصب) واحد من أغلظ الحجب التي تحجب الحقيقة عن الباحث عنها، وعامل مهم في اختلاف العقول والقلوب، دع عنك أنه خطأ جسيم من أخطاء التفكير.

وأوضّح الفرق بين التقدير والتقديس بمثلين، روي الأول في صحيح مسلم رحمه الله. وهو أن النبي ﷺ أرسل أبا هريرة رضي الله عنه قائلاً له: «**اذهب بنعليّ هاتين، فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله، مستيقناً بها قلبه، فبشره بالجنة**»، فردّه سيدنا عمر رضي الله عنه، ومنعه، فسأله النبي عليه الصلاة والسلام قائلاً: «**يا عمر، ما حملك على ما فعلت؟**» قال عمر: فلا تفعل فإني أخشى أن يتّكل الناس عليها، فخلّهم يعملون. قال ﷺ: «**فخلِّهم**».

والشاهد في الحديث أن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه مع حبّه الشديد، واحترامه الكامل، وثقته المطلقة في

حكمة النبي عليه الصلاة والسلام، ردّ أبا هريرة رضوان الله عليه، وبيّن رأياً مخالفاً، فوافقه عليه الرسول المعصوم عليه سلام الله.

والمثال الثاني القصة المعروفة في غزوة بدر، عندما نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند أدنى ماءٍ من مياه بدر، فقال له الحُباب بنُ المنذر رضي الله عنه: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا أن نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**». فقال الحباب: فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماءٍ من القوم فننزِلَه، ثم نغوِّرَ ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون. فنهض رسول الله عليه الصلاة والسلام، وتحول إلى المكان والرأي اللذين أشار بهما الحباب رضي الله عنه.

إن الاحترام والتقدير لا يمنعان من السؤال، والاستفهام، والتعبير عن الرأي، والمخالفة في الرأي إن اقتضى الأمر ذلك!!

ويحسن بنا ونحن نتحدث عن التقدير والتقديس، محاولين إدراك الفرق بينهما، واجتناب الخطأ من اللبس

obeikandi.com

فيهما وما ينجم عنه، في طريقنا إلى إدراك فقه الائتلاف الذي يجمع بين القلوب، وإن اختلفت الآراء، يحسن بنا أن نذكر الأمور التالية.

١ ـ الحق ليس حكراً على أحد، فكل إنسان يخطئ ويصيب، والمعصوم هو النبي ﷺ.

٢ ـ العالم الكبير قد تحدث منه زلة كبيرة، يعتذر له عنها، ولا تقدح في سائر فضائله.

٣ ـ قد يكون الرجل متفوقاً في علم دون علم فيكون لرأيه وكلامه وزن فيما برع فيه، لا فيما سوى ذلك، وكم من إمام في الحديث لا باع له في الفقه، وكم من إمام في العلوم العقلية بضاعته في الحديث مزجاة.

٤ ـ قد يتصف العالم بخُلُقٍ دون خلق؛ فالكمال في الرجال - حاشا الأنبياء عليهم السلام - غير موجود. وتختلف حظوظ العلماء قِلةً وكثرة من فضائل: كالذكاء الحاد، والحكمة العميقة، والتقوى، وسعة الأفق، وقوة الذاكرة، وحسن الخلق... وكم من تقي نقي لا يكتب حديثه لقلة ضبطه! قال الجاحظ في إحدى رسائله: «ولكل أحد

obeikandi.com

نصيبٌ من النقص، ومقدار من الذنوب، وإنما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوئ، فأما الاشتمال على جميع المحاسن والسلامة من جميع المساوئ، دقيقها وجليلها، وظاهرها وخفيِّها، فهذا لا يعرف».

٥ ـ الحق لا يعرف بالرجال، لكن الرجال يعرفون بالحق، فلا أحد أجلُّ من أن يخطئ ولا أحد أصغر من أن ينصح ويصوّب. وهذا هو الصحابي الجليل، الأمير القائد، أمين الأمة، أحد العشرة المبشرين بالجنة أبو عبيدة بنُ الجراح رضي الله عنه وأرضاه، أخطأ في موضوع مهم يتعلق بالقضاء والقدر، فصوّبه الفاروق رضي الله عنه، وذلك حين قرر الخليفة العودة بالجنود بعد أن سمع أن الوباء وقع بالشام، فقال له أبو عبيدة: «أفراراً من قدر الله»؟ فقال عمر مستنكراً: «لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم، نفرّ من قدر الله إلى قدر الله» رواه البخاري ومسلم. والله أعلم.

obeikandi.com